المبحث الأول
التشكيل الإداري لديوان كاتب السر، كاتب السر (مكانته،مهامه،صفاته،معاونوه)

ان انتقال حكم مصر الى المماليك الأتراك لم يوقف اهتمامهم بنظمهم الإدارية متشبهين بالأيوبيين ومؤسساتهم الادارية، ومن بين هذه النظم ديوان الإنشاء الذي حظي بعناية واهتمام كبيرين من السلاطين المماليك لحاجتهم الى ضبط امور المكاتبات السلطانية التي زادت كثيراً بسبب النشاط الحربي من جهتي المغول والصليبيين التي ترد الى السلطان من جميع انحاء الولايات والممالك، بما فيها الدول التي بينها وبين مصر علاقات سياسية، كما كانت تحرر فيه الكُتب التي يرسلها السلطان الى الملوك والامراء المحليين؛لذا بقي الديوان هذا محتفظاً بتلك المكانة السامية والمنزلة الرفيعة لدى السلطان المملوكي، وارتفعت طبقاً لذلك منزلة رئيسهُ ومتوليه واصبح واسع الجاه والنفوذ والسلطان،وكاد ان يكون أقرب رجال الدولة الى السلطان؛ فهو مستشاره في امورهِ الداخلية منها والخارجية[1].

كيف تحول اسم ديوان الانشاء الى ديوان كاتب السر

سبق الذكر ان ديوان الانشاء في مصر كان ديواناً واقعاً في عمله تحت اشراف الوزير، منذ ان استقلت مصر عن مركز دار الخلافة العباسية. ولمّا تولى المماليك البحرية حكم مصر نهجوا على النهج نفسه في بداية حكمهم، إذ كان يشرف على صاحب الديوان أحد الامراء من الدوادارية الكبار[2]، مثلا ففي عهد الظاهر بيبرس (6

---

1)) القلقشندي؛ صبح الاعشى، جـ1، ص101؛ خليل بن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص99.

2 (?) هي وظيفة ادارية شاملة الذي يليها غير جندي، وهي نوع من انواع المباشرة فجعلها الملك الظاهر بيبرس على هذه الهيئة، غير ان الذي يليها امير عشرة، وهي كلمة فارسية مكونة من مقطعين تعني ماسك الدواة، وقد أطلقت على مقدم البريد للسلطان. المقريزي، الخطط، جـ1، ص

58 – 676 هـ /1260 – 1277 م) كان الامير سيف الدين بلبان الدوادار[1] هو المشرف على ديوان الانشاء، حتى انه كان يملي على احد كُتّاب الدست في الديوان ذلك الوقت محي الدين بن عبد الظاهر(ت 692 هـ / 1292م) [2]، وبقي الديوان هذا يُعرف بديوان الانشاء، وصاحبه يُعرف صاحب الدست الشريف، كما في أيام الفاطميين او يعبر عنه احياناً بكاتب الدست، او كاتب الدرج،مثل ما كان يُعرف عنه بعهد الأيوبيين، ويشرف عليه الوزير الى عهد السلطان المملوكي المنصور قلاوون سنة 678هـ/1279م الذي عمد الى فصل سلطة ديوان الانشاء عن اشراف الوزير،ولقب صاحبهُ بـ(كاتب السر)لانهُ يكتم سر السلطان[3]،وكان يعرف احياناً بكاتب الانشاء او ناظر الانشاء الشريف[4]

ان فكرة لقب كاتب السر في الدولة المملوكية كرونولوجياً تعود الى عهد السلطان الملك الظاهر بيبرس (658-676هـ/1260-1277م)، إذ رأى هذا الاخير انه لابد من ان يكون للسلطان كاتب

666؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ1، ص104؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص185.

1)) هو بلبان بن عبد الله الرومي من اعيان الامراء ومن نجبائهم وكان الظاهر بيبرس يعتمد عليه ويحمله اسراره الى القصاد، توفي سنة 680هـ/1281م في موقعة حمص. انظر عنه ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص185.

2)) انظر عنه رسالة ماجستير ليندا نورثون، محي الدين ابن عبد الظاهر (جامعة مكبل: معهد الدراسات الاسلامية، 1978) بأشراف الدكتور دونالد لتل الا ان الرسالة لم تتوافر للباحث حسب قول الأستاذ الدكتور مرتضى حسن النقيب.

3)) الخالدي، المقصد، ص12؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص 225.

4)) المقريزي، الخطط، جـ2، ص228؛ خليل بن شاهين الظاهري، زبده كشف الممالك، ص98 وايضاً عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ط1(القاهرة: مط مكتبة الانجلو المصرية، 1964م)، ص ص54-55؛ علي ابراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص 314؛ عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الايوبي والمملوكي، ص50

سر خاص بشؤونهُ يأخذ منه الاوامر شفاهاً وذلك بسبب خلافهُ مع كاتبه محي الدين بن عبد الظاهر الذي انكر عليه كِتاباً كان قد رفعه اليه ووجده لايتفق مع آرائه، ولمّا سألهُ، أجابه انه أمرَ به الامير سيف الدين بلبان الدوادار[1] وكان قلاوون في ذلك الوقت من الامراء الحاضرين هذا الجدل، وأيد رأي السلطان من ان يكون له كاتب يحفظ اسرار المُلك ويخضع لسيده وحده، إلا ان هذا الامر لم يُنفذ من لدن بيبرس بسبب مرض السلطان الظاهر المفاجئ، وان موتهِ سنة 676هـ/1277م حال دون ذلك[2]. وعندما اعتلى المنصور سيف الدين قلاوون سنة 679هـ/ 1279م عرش السلطنة في البلاد المصرية احيا الفكرة التي رسخت في ذهنه عن كِتابة السر، فعين له كاتباً خاصاً لديوان انشائه عرف بأسم كاتب السر[2]، ومن هذه الوجهة فان الأمير قلاوون ربما كان يقف وراء تنفيذ تلك الفكرة،ولاسيما ان قلاوون كان احد امراء السلطان السعيد بركة خان (ولد السلطان الظاهر بيبرس) (676- 678 هـ / 1277-1279م)، ومن المؤيدين لاستحداث وظيفة تحمل تسمية كاتب سر السلطان (الكاتم)، فضلاً عن شهرته كأحد الأمراء الراغبين للإصلاح في السلطنة البحرية.

خصوصيات ديوان كاتب السر

---

1)) امر محي الدين بن عبد الظاهر بكِتابة مرسوم يطلق له من الخزانة العالية بدمشق عشرة الاف درهم نصفها عشرون الف فكتب المرسوم وبعثه الى دمشق فانكروه واعادوه الى السلطان يسألوه عن عشرين نصفها عشرة او بعشرة نصفها خمسة وطلب السلطان الظاهر بيبرس محي الدين يسأله عن مصدر هذا المرسوم وكان جوابهُ أمر من الدوادار سيف الدين بلبان. انظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص333.

2)) الصفدي، الوافي بالوفيات، جـ9، ص75؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص ص175-176، 333.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص333؛ نفسه، المنهل الصافي، جـ3، ص199؛ السيوطي، حسن المحاضرة، جـ2، ص ص231-234.

قبل الخوض بخصوصيات هذه الوظيفة، لابد من ان ننوه اننا لانعرف سوى القليل عن أمناء السر الذين كانوا قد عملوا بصفة كُتّاب جياد مباشرين للخلفاء، سواء من عمل منهم مع الأمويين[3]، أو مع خلفائهم العباسيين[4]، فكانوا يختارون من الكُتّاب المشهورين من يحفظ لهم بعض الكُتب الواردة والصادرة عنهم التي يرغبون ان يقرأها احدٌ عليهم[1]؛ لذا كانوا حقيقة بمثابة كُتّاب أمُناء سر المُلك،على الرغم من عدم أطلاق مثل هذه التسمية عليهم بصورة مباشرة.

ان الديوان في أية دولة كانت يلزمهُ نوع من السلم الإداري لكي يقوم بمباشرة مهامهِ تماماً كما في وقتنا الحاضر، من رئيس هو بمثابة أستاذ في الديوان، يساعده عدد من الموظفين المحترفين يقومون بكِتابة وتدوين جميع الكُتب والرسائل بمختلف أغراضها طبقاً لقواعد المهنة، مع متابعة وترويج الكُتب الصادرة عن كبار رجال الدولة من النواب والوزراء والولاة وحتى من القضاة والأعيان، فضلاً عن وجود فئة من العمال الذين يتولون مهمة تصنيف وحفظ تلك المكاتبات. وسبق ان قلنا ان التنظيم الاداري لدولة المماليك في

3) منهم أبو الزعيزعة كاتب الخليفة عبد الملك بن مروان (65-86هـ/685-705م) الذي كتب له ايضاً روح بن زنباع الجذامي وكتب لسليمان بن عبد الملك(96-99هـ/715-717م)، الكاتب سليم بن نعيم الحميري والكاتب الليث بن ابي رقيه، وكتب ليزيد بن عبد الملك (101-105هـ/720-721م) الكاتب يزيد بن عبد الله واسامة بن زيد السلجي. وللمزيد من المعلومات عن سير هؤلاء الكُتّاب الاوائل انظر الجهشياري، الوزراء والكُتّاب، ص ص 20-65.

4) من هؤلاء الكُتّاب لدينا اسماء الذين اصبحوا وزراء فيما بعد مثل الحسن بن وهب واحمد بن المدبر خلال عهد المعتصم بالله (218-227هـ/833-841م) وعهد الخليفة الواثق (227-232هـ/842-847م)، وابي الحسن علي بن الفرات وابي علي محمد بن مقلة خلال خلافة المقتدر بالله (295-320هـ/908-932م). وللمزيد من المعلومات عنهم انظر الجهشياري، الوزراء والكُتّاب، ص ص23-40؛ ابن الطقطقي، الفخري في الاداب السلطانية، ص ص241-245 وانظر حسن وعلي ابراهيم حسن، النظم الإسلامية، ص ص162،181.

1 (?) المقريزي، الخطط، جـ2، ص224.

مصر هي ما ورثته ادارة السلطنة عن النظم الادارية لمن سبقهم من الأيوبيين، إلا انه اختلف عنهم في أحداث تغيرات مركزة على هذه الانظمة التي اصبحت فيما بعد مضرب الامثال في الدقة والترتيب والانسجام على أساس ان سلطنة المماليك ذات طبيعة مدنية وعسكرية أهتمت بأداة السلم والحرب معاً.

كان ديوان الإنشاء، او ديوان كاتب السر، مثلما أصبح يعرف عند المماليك احد اهم النظم الادارية التي اهتم بها سلاطين المماليك،فكان رئيس الديوان يُعين بمرسوم سلطاني ينتهي بحلف اليمين امام السلطان[1]، ثم يقوم بتعيين معاونيه او مساعديه (نوابه)[2]، وكان السلطان يمنحه لقب شرف يتميز به عن غيره من اصحاب الدواوين مثل لقب مقر او رئيس[3]، وكذلك يخلع عليه خلعة التنصيب، وهي جُبة ثمينة مطرزة بالحرير يصحبها فراء فاخر[4]، فضلاً عن الهدايا التي كانت تعطى له من مصادر السلطنة.

قُسمت أعمال هذا الديوان منذ استحداثه بالنسبة للفئات العاملة فيه الى مجموعتين عاملتين: الاولى خاصة بالكِتابة والكُتّاب، والثانية ذات مهام ترتبط بالمساعدين من غير الكُتّاب،فيما يرأس هاتين المجموعتين كاتب يعرف بأسم كاتب السر، او كاتم السر، الذي يتولى الرد على الكُتب التي ترد الى الديوان، إذ يكتب اجوبتها

---

1 (?) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ13، ص 310 وكذلك عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص55.

2 (?) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ13، ص310 وأيضا عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص55.

3) (القلقشندي، صبح الأعشى، جـ5، ص ص494-495؛ ابن اياس، بدائع الزهور، جـ3، ص ص3-4 ويراجع عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص55؛ حسن الباشا، الالقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق والاثار، ط1 (القاهرة: مط النهضة المصرية، 1957م)، ص ص106، 108، 490، 493.

4 (?) القلقشندي، صبح الاعشى، جـ5، ص489 وانظر سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط1 (القاهرة: مط النهضة، 1962م)، ص307؛ حسن الباشا، الالقاب الاسلامية، ص490

بخطه او بخط احد معاونيه من كُتّاب الدست، او الدرج، بعد أخذ علامة السلطان عليها[1]؛ من اجل هذا اشترط فيه ان يكون ملماً بأمور الديوان، مطلعاً على خفاياه، ويباشر الأشراف على كُتّابه من خلال توزيع العمل بينهم[2]، وكان يجلس بين يدي السلطان بدار العدل ليقرأ عليه الكُتب الواردة والقصص التي يرتئي عرضها عليه[3].

وقد حظي كاتب السر بمكانة متميزة لدى سلاطين البلاد منذ ان ولي فتح الدين ابن عبد الظاهر (ت 692 هـ / 1292م) كِتابة السر ايام السلطان المنصور قلاوون (679 – 689 هـ / 1279 – 1290 م)، حتى اصبح يحضر حلف اليمين التي يؤديها ولاة الاقاليم بعد تعيينهم . فكان يقوم بنفسه من كِتابة مراسيم التولية وتزويدهم بنصائح لرفع الظلم عن اهالي ولايتهم، اما اذا احس بخطر يهدد مصلحة السلطان او الرعية فيُبادر الى اطلاعهِ من دون تردد،ولهذا تتوفر شهادة من القلقشندي في وصف منزلتهِ تلك بقولهِ:**(ومرتبتهِ في زماننا ارفع مرتبة، ومحلهُ اعظم محل، اليه تلقي اسرار المملكة وخفاياها، وبرأيه يستضاء في مشكلاتها، وعلى تدبيره يعول في مهماتها، واليه ترد المكاتبات وتصدر، ومن دواوينهِ تكتب الولايات السلطانية كافة، ويقوم بتوقيعه على القصص والاوامر مقام توقيع**

---

1 (?) هي ما يكتبه السلطان على صورة اصطلاحية خاصة، وكان لكل سلطان علامة وتوقيع. المقريزي، الخطط، جـ2، ص210؛ نفسه، السلوك، جـ 1، ص344

2 (?) القلقشندي، صبح الاعشى، جـ1، ص132؛ الخالدي، المقصد، ص134.

3 (?) القلقشندي، صبح الاعشى، جـ1، ص137؛ المقريزي، الخطط، جـ2، ص ص226-227 وانظر محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص ص 100-101.

السلطان)[4]. ويوثق العمرى، كونه احد كُتّاب السر، هذه المسؤولية بقوله: **(وانني مهما أطلعت عليه من مصالح مولانا السلطان، اوصلهُ اليه، واعرضهُ عليه، ولا اخفيه شيئاً منه، ولو كان عليّ، ولا اكتمه، ولو خفت وصول ضرره إليّ)** [2]. اما مؤرخ البرجية المقريزي فيصفه: **(ومنزلة كاتب السر منزلة صاحب ديوان الانشاء، إلا انه يتميز بالتوقيع على القصص تارةً بمراجعة السلطان، وتارةً بغير مراجعته)**[3]؛ لذلك اشترط في كاتب السر ان يكون صبيح الوجه، فصيح الالفاظ،طلق اللسان، اهلاً في قومهِ، رفيعاً في حسبهِ، وقوراً وحليماً مؤثراً للجد على الهزل كثير الاناة والرفق، وقليل العجلة والخزق ومهيب المجلس سريع الرضا بطيء الغضب محباً لاهل العلم والادب[4]،**(لانه الناصح الامين للسلطان يمده بصائب رأيه وسديد مشورته في ان يشيد بجميل أفعالهِ وحميد خصالهِ)**.

ومن مجموع هذه القائمة من الشروط يلاحظ ان أكثرها اهمية واكثرها تأثيراً في مستقبل متوليها هي صفة كتمان السر، ومن هنا روج القلقشندي صفة مرشحها**: (ان يكون بالمنزلة التي لايدانيه احد فيها، ولا يقاربهُ بشر، فيقرر في نفسه أمانة كل حديث يعلمه، ويتناسى كل خبر يسمعهُ... ففي اذاعته**

1 (?) صبح الاعشى، جـ1، ص101.
2 (?) التعريف بالمصطلح الشريف، ص15.
3 (?) الخطط، جـ2، ص308.
4 (?) القلقشندي، صبح الاعشى، جـ1، ص104؛ علي ابراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص312.

ما يعلم به وضع منزلتهِ وحط رتبتهِ ويجتهد في ان يصير له ذلك طبعاً مركباً وامراً ضرورياً) [1]**.**

اما خليل بن شاهين الظاهري احد الاداريين المتميزين في سلطنة الظاهر برقوق (784 -801 هـ / 1382 – 1398 م) فانه يضيف شرطاً لمؤهلية كاتب السر على مجموعة القلقشندي، فيصحح مقولة من يدعي ان: **(من شروط هذا ان يكون لا يعرف التركية لئلا يطلع على بعض مقاصد المُلك اذا تكلم باللفظ التركي)**[2]، إلا ان ابن شاهين الظاهري ينكر وجود هذا الشرط،ويرى من المستحيل تحقيقه في مؤهلات متولي هذه الولاية،وهو الأصح على ما يبدو لنا لأنه يتنافى مع اسمهِ وصفتهِ بكتمان السر قلباً وقالباً.

ينقسم القسم الأول من الديوان وهو ما نعتناه بالخاصية الكِتابة، والكُتّاب فيه ينقسمون الى طبقتين: الأولى تعرف باسم **كُتّاب الدست** او **موقعي الدست** لانهم كانوا يصطحبون السلطان ومعهم رئيسهم كاتب السر بين يدي السلطان في دسته، ويجلسون برتيب أقدميتهم في العمل، وكانت مهمتهم تقوم وظيفياً على تحرير رسائل الديوان وتحديد وجهتها إلا ان من واجباتهم التوقيع على القصص الديوانية بجانب توقيع كاتب السر؛ لذا عرفوا بالموقعين[3].

---

1 (?) صبح الاعشى، جـ1، ص116.
2 (?) زبدة كشف الممالك، ص ص99-100
3) (عبد الرحيم بن علي بن شيث القريشي، معالم الكِتابة ومغانم الإصابة، تعليق الخوري قسطنطين الباشا المخلصي، ط1 (بيروت: مط المطبعة الادبية، 1913م)، ص24؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ1، ص137؛ المقريزي، الخطط، جـ2، ص266؛ خليل بن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص100 وانظر محمد الحبيب الهيلة، نظم الادارية في القرن9هـ من خلال كُتّاب روضة الاديب ونزهة الاريب لمحمد بن ابراهيم بن ظهيره الحنفي الحموي، ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة مارس-ابريل 1969،

يبلغ عدد كُتّاب الدست سبعة [1] يرأسهم كاتب مهمته نقل ما يطلبه كاتب السر منهم تدوينه، موزعاً اعمال الديوان فيما بينهم، فواحد يقوم بتحرير المبايعات والعهود، ويشترط فيه ان يكون واسع الاطلاع مبتكراً للعبارات البليغة، وآخر يتولى مكاتبات ورسل الملوك، ولابد من ان يكون ملماً بكِتاب الله وسنة نبيه وسير الخلفاء والملوك، وكاتب يقوم بكِتابة مراسيم الدولة لابد ان يكون خبيراً عارفاً بألقاب الملوك والامراء وما يجب ان يستعمله من صفات ونعوت عند مخاطبتهم، ورابع مهمته تحرير المنشورات[2]، ويشترط فيه حسن الخط،وكاتب خامس يقوم بمخاطبة الأمراء وأولاد الملوك والسلاطين،عارفاً قدر كل واحد منهم، والسادس يقوم بمكاتبات الملوك الأجانب فلابد من أن يكون ملماً بكثير من اللغات الأجنبية، وأما السابع أو الأخير فيقوم بتعريب الكُتب الواردة من البلاد الأجنبية وتلخيصها لعرضها على السلطان[3].

ط1(د. م: مط دار الكتب، 1971م)، جـ3، ص1066.

1 (?) كان عددهم في بداية الدولة المملوكية ثلاثة ايام المعز أيبك وحتى في بداية عهد الظاهر بيبرس الى ان عين السلطان الظاهر بيبرس سبعة كُتّاب لحاجته اليهم لكِتابة مناشير الى امرائه وولاته بعد انتصاره في فتح عكا سنة 661هـ/1262م وقد ازداد هذا العدد ايام السلطان الاشرف شعبان بن حسين سنة 778هـ/1376م الى عشرة كُتّاب وفي سلطنة الظاهر برقوق سنة 784هـ/1382م وابنه الناصر فرج سنة 801هـ/1398م الى عشرين كاتب. انظر المقريزي، السلوك، جـ1، ص ص490-491.

2 (?) كل ما يصدر عن السلطان من مكاتبات لاتحتاج الى ختمه وهي المنشورات الخاصة باقطاعات الجيش. القلقشندي، صبح الاعشى، جـ13، ص157.

3 (?) القلقشندي، صبح الاعشى، جـ11، ص ص333-335؛ المقريزي، الخطط، جـ3، ص333؛ خليل بن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ص99-100؛ الخالدي، المقصد، ص ص116-118 وكذلك عبد المنعم ماجد، نظم دولة المماليك ورسومهم، ص55؛ محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص ص102-104؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في عصر دولة المماليك البحرية، ص148.

أما الطبقة الثانية من فئة الكُتّاب فتعرف باسم **كُتّاب الدرج**[1] التي يعتمد على عناصرها كاتب السر في تمشية المهام الكِتابية الموكلة بوظيفته، ويتخصص عمل هؤلاء الكُتّاب بنسخ كُتب العهود للسلطان أو الوزير أو غيره من أصحاب المراتب العليا في الدولة بعد إطلاعهم على ملاحظات مرؤوسهم كاتب السر، أو احد كُتّاب الدست على المكاتبات والمراسيم والمناشير والرد عليها، على وفق ما جاء بهذه الملاحظات والتعليمات[2]، وهذا هو، في حقيقة الأمر الواقع، عكس مهمة كُتّاب الدست أو الموقعين في تسميتهم الأخرى، فيما تنحصر مهمة كُتّاب الدرج في كِتابة مسودة الكِتاب الذي كتبه كاتب السر شخصياً،وقد بلغ عدد هذا النوع من الكُتّاب في أيام دولة المماليك البحرية أربعين، بينما تضاعف هذا الرقم أكثر من ثلاث مرات أيام المماليك البرجية حتى تجاوز المائة والثلاثون كاتباً لهذه الفئة[3].

ويلاحظ على هذا التنظيم المتداخل لديوان كاتب السر وتقسيماتهِ انها جاءت مشابهة نوعاً ما لتقسيمات ديوان كاتب الدست ايام الأيوبيين[4]،إلا ان وظيفة كاتب السر في عصر المماليك تطورت تطوراً هائلاً كاد ان يكون تاماً، لان المماليك تمكنوا من ان يستمروا في تسيير امور مصر السياسية والعسكرية بصورة مستقلة

1 (?) سموا بذلك لتحريرهم الكُتب على دروج وهو الورق المستطيل المركب من عدة اوصال وهو عبارة عن عشرين وصلاً متلاصقة. القلقشندي، صبح الاعشى، جـ1، ص138؛ الخالدي، المقصد، ص135 وانظر حسن ابراهيم حسن، النظم الاسلامية، ص145.

2 (?) القلقشندي، صبح الاعشى، جـ1، ص138؛ خليل بن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص100 وانظر ايضاً علي ابراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص315؛ عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص56؛ محمود رزق سليم، عصر سلاطين المماليك، ص ص105-106.

3 (?)السلوك، جـ1، ص ص489، 490-491

4 (?) عن تقسيمات ديوان الانشاء الايوبي يراجع الفصل الاول ص ص41-43.

من دون خضوعهم لأي تبعية سياسية مثلما كان الحال مع الأيوبيين الذين يعترفون بسيادة العباسيين عليهم،بل ان السلطنة المملوكية تكاد تكون هي المسؤولة عن تدبير السياسة الإسلامية ولاسيما ان الخطوة التي تبنوها في إحياء الخلافة العباسية مجدداً بعد ان صفي البيت العباسي والخلافة العباسية على يد المغول سنة 656هـ/ 1258م[1] في بغداد قد أعطت مصر مسؤولية الجوانب الشرعية بدار الإسلام، إلا أن هذا التحول من جهة أخرى كان امتدادا لما كانت عليه مصر في ايام الفاطميين والأيوبيين الذين استقلوا عن بغداد مركز الخلافة العباسية واصبح لهم نظامهم الإداري الخاص بمؤسساتهم، وان كانت جوانب من سماته تتشابه بنظام الخلافة الإداري. ثم اتبع المماليك هذا الأسلوب ايضاً وطوروه،ومن هذا المجموع للنظم، يهمنا هنا تخصيصاً ديوان الإنشاء الذي أصبح يعرف بديوان كاتب السر، الذي امتاز أيام المماليك بنظامهِ البيروقراطي المتطور.

واذا ما قارنا بين تركيب ديوان كاتب السر لدى ديوان كاتب الدست عند الأيوبيين، الذين ورثوه عن الفاطميين نلاحظ التشابه

---

[1] (?) ان الظاهر بيبرس سنة 658هـ/1260م استقدم احمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله بن الخليفة الناصر لدين الله وهو احد رجال الدولة العباسية الذي تمكن من الهرب من الكسح المغولي على بغداد، وبسبب خوف المماليك من تشكك الناس في أحقيتهم في تولي امر مصر، عمد الظاهر الى استقبال احمد بن الخليفة الظاهر الى اخذ البيعة له من عامة الناس بعد ان بايعه هو اولاً على الخلافة ولقبه بالمستنصر بالله ثم اخذ تفويض من الخليفة الجديد المستنصر بالله ذا النسب النبوي في سلطنة مصر سنة 659هـ/1261م، وبذلك قوى عرشه بهذه الشرعية ضد اعدائه من امراء المماليك في أحقية المماليك لتولي شؤون مصر. انظر النويري، نهاية الارب، جـ28، ص ص18-19؛ ابو الفداء، المختصر، جـ3، ص215؛ المقريزي، السلوك، جـ1، ص554؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ3، ص188؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، جـ2، ص324 وانظر ايضاً حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي، جـ1، ص95؛ فيليب حتي، تاريخ العرب، جـ3، ص ص236-237؛ وليم ميور، تاريخ المماليك، ص ص15-16.

قائماً في عمل الاثنين وفي عمل معاوني الديوان كليهما،وعلى الرغم من الاختلاف يبقى هناك مؤشراً واضحاً في تطور الديوان لدى المماليك في امور الترتيب والتنظيم لعملهِ وعمل معاونيه وفي توسعه ودقة واجباتهِ بعكس ما كانت عليه من إيجاز في عصر الايوبيين اذا ما استبعدنا تغيير اسم كاتب الديوان واسماء كُتّاب معاونيه،فضلاً عن استحداث المماليك بسبب توسع الدولة لمجموعة اخرى من المعاونين المساعدين لكتبة ديوان كاتب السر لم يكن يُعرف عنهم شيء ضمن تنظيمات مساعدي ديوان الانشاء في العهود التي سبقت المماليك في حكم مصر.

ان من أهم هؤلاء المعاونين في الديوان موظفاً كبيراً يعرف بأسم **الدوادار**[1]، ومهمة هذا الموظف في الديوان تنحصر بتبيلغ الرسائل والقصص الديوانية الصادرة عن السلطان واليه بعد وضع العلامة السلطانية[2]عليها،التي تعدّ بمثابة الاشارة التي تُذيل بها الكُتب السلطانية لأعطائها الصفة الرسمية،وهو في رأي الاستاذ المصري الراحل حسن ابراهيم حسن،ما اخذه المماليك عن الفاطميين[3].وكان الدوادار لا يقوم بأصدار المراسيم إلا بعد

1 (1) الدوادار اسم مركب من لفظين احدهما عربي وهو الدوا والثاني دار وتعني ممسك فيكون الاسم يعني ممسك الدواة وحذفت الهاء لاستثقالهِ وقد شاع عمله اواخر أيام العباسيين. القلقشندي، صبح الاعشى، جـ5، ص 462؛ المقريزي، الخطط، جـ2، ص211؛السيوطي، حسن المحاضرة، ص 134؛ الخالدي، المقصد، ص125.

2 (2) اتخذها المماليك من الفاطميين ففي عهد المستنصر بالله الفاطمي (427-487هـ/1035-1094م) كتب العلامة السلطانية كاتبه القضاعي نيابة عن الوزير اصالة ابي القاسم الجرجاني (ت 436هـ/1044م) وكانت العلامة تشمل (الحمد لله شكراً بنعمته). انظر الصيرفي، الاشارة الى من نال الوزارة، ص ص35-37؛ المقريزي، السلوك، جـ1، ص344؛ نفسه، الخطط، جـ2، ص210 ويراجع كذلك حسن ابراهيم حسن، الفاطميون في مصر، ص12؛ عبد اللطيف حمزة، الحركة الفكرية في مصر، ص51؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في عصر دولة المماليك، ص148.

3 (3) الفاطميون في مصر، ص12.

استشارة السلطان، واخذ الاذن منه بفحوى التحرير على قول ابن فضل العمري، عن لسان احدهم عهد السلطان الناصر محمد إذ يقول:**(انني لا اؤدي عن مولانا السلطان رسالة في أطلاق مال،ولا استخدام مستخدم،ولا اقطاع،ولا ترتيب مرتب،ولا تجديد مستجد،ولا سداد شاغر،ولا فصل منازعة ولا كِتابة توقيع مرسوم،ولا كِتاباً صغيراً كان او كبيراً إلا بعد عرضه على مولانا السلطان ومشاورتهِ ومعاودة أمرة الشريف ومراجعتهِ)**،[1] فقط اذا أخرج عن دست السلطان أمرا بكِتابة مرسوم يحمل الدوادار رسالته الى ديوان كاتب السر لتحريرها[2]، وأيضا يقوم مع الدوادار موظف آخر يعرف أمير جاندار[3].

ويقوم الدوادار ايضاً بعمل الخازن حيث يخزن ويحفظ ويُودعْ المكاتبات السلطانية بمختلف انواعها في اضابير خاصة،عادةً تكون مقسمة على حسب نوع الكِتاب الصادر من الديوان او القادم اليه بحيث يُعلق عليها بطاقة بأسمهِ (اي اسم مضمون الكِتاب) وتاريخهِ باليوم والشهر والسنة ثم تجمع هذه البطاقات وتوضع في أضابير خاصة لذلك الشهر، حتى يسهل فيما بعد استخراج ما اريد منه ان يستخرج من الكُتب والتواقيع، واذا ما انتهى العام ضمت اوراق الشهور مجتمعة مع بعضها البعض بعد ان يثبت عليها السنة التي تعود اليها البطاقات،والعادة ان تبدأ الكِتابة فيه من اعلاه مع بيان

---

1 (?) التعريف بالمصطلح الشريف، ص ص121-122.

2 (1)القلقشندي، صبح الاعشى، جـ4، ص ص20-21.

3 (?) يقوم بمهمة الحاجب في القصر يدير أمر حراسته في خروجه وله الاشراف على الزردخانة وهو أخطر المعتقلات او السجن المخصص للمجرمين من الامراء واصحاب الرتب ويوكل اليه تنفيذ اوامر السلطان بخصوص مكافأة الامراء او التخلص منهم وكذلك يشترك مع الدوادار وكاتب السر في تقديم البريد. العمري، مسالك الابصار،ص ص117- 118؛ المقريزي، الخطط، جـ2، ص222.

اليوم الذي ينتهي فيه الشهر، ويترك ورقة بيضاء تفصل بين اوراق اشهر السنة تلك. وهذا الدوادار هو نفسه يقوم مقام الحاجب في الديوان[1].

إدارياً تعدّ هذه الوظيفة من الوظائف المهمة والمؤثرة في سير ديوان كاتب السر، لان الدوادار يحيط من خلال عمله هذا بكل ما كان يصدر عن الديوان وما يرد اليه من مكاتبات، وهو بنفسه يقوم بختمها بخاتم الدولة او السلطان الذي اختلف في مقدار حجم الورقة التي كتبت عليه، حسب اختلاف رتبة المرسل إليه، لذا فهو يشبه في عملهِ نوعاً ما عمل صاحب ديوان الخاتم أيام الأمويين والعباسيين، ومن بعدهم الفاطميين.

كان يعاون الدوادار في عمله،وينوب عنه اذا غاب ايضاً، موظف ينتمي الى فئة الكُتّاب يعرف بأسم **حامل المئزرة**[2] او خادم المئزرة،ومهمته ترتيب الاوراق التي اعتمدت من السلطان ووضعها في فوطة، تضع عليها الاوراق الكبيرة أولاً ثم الصغيرة فالاصغر ثم ترتيب المناشير في قطع الورق تلك، حتى توضع في الفوطة ولا تختلط مع بعضها البعض،ثم توضع المراسيم المربعة، والتذاكر،ثم التواقيع الصغار وتلف في المئزرة، وتحمل الى الدركاه، واشترط [اي حامل المئزرة] ان يكون خبيراً بالالقاب والعلامات وحجم الورق[3]،حتى يعرف كيف ترتب تلك الاوراق او الكُتب كلاً حسب اهمية المكتوب.

---

1 (3) الخالدي، المقصد، ص ص121-122 وانظر علي ابراهيم حسن، تاريخ المماليك، ص320، عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص56.

2 (?) المئزرة تصنع من القماش المخرز الصافي ببطانة في صفه الكبير طولها ذراعان وثمن ومثنيه وعرضها ذراع وثلث بعلامه من الخيط المحفر تجتمع في حزمتها. الخالدي، المقصد، ص121.

3 (?) الخالدي، المقصد، ص125 وانظر حسن ابراهيم حسن، تاريخ المماليك، ص321.

وكان للدوادار اعوان آخرون أطلق عليهم نفس اسمهِ مع أضافة كلمة عددية له للتعريف بموقعه فيقال مثلاً الدوادار الثاني، والدوادار الثالث، والدوادار الرابع، ويخضعون إدارياً لإشراف الدوادار الكبير[1].

وهناك فئة من الكُتّاب ذات صفة مساعدة لصاحب ديوان كاتب السر واختصت بإحصاء ما عند كُتّاب الديوان من الكُتب والقصص الديوانية وقد عُرفوا بأسم **المدرا**[2].

صفة ديوان كاتب السر في بلاد الشام

كانت بلاد الشام ولاية تابعة للسلطنة المملوكية وتحتفظ بالنظام الاداري السائد فيها على شكل صورة مصغرة لنظام الحكم المتبع لسلطنة المماليك البحرية في مصر. وكانت تتكون من ست ممالك متقاربة [3]، وكل مملكة منها صارت نيابة سلطنة مضاهية للملكة المستقلة [4]، وكانت لهذه النيابات عدد من الدواوين [5]، من

1 (?) القلقشندي، صبح الاعشى، جـ1، ص139؛ الخالدي، المقصد، ص 125وكذلك حسن ابراهيم حسن، تاريخ المماليك، ص321.

2 (?) الخالدي، المقصد، ص120.

3 (?) هي مملكة دمشق وحلب وحماة وطرابلس وصفد والكرك. لهذه التقسيمات انظر القلقشندي، صبح الاعشى، جـ4، ص163.

4 (?) وهو النائب الكافل في الحضرة السلطانية يعادل في عصرنا رئيس الوزراء، وكثيرا ما يصير بعد خلع السلطان أو قتله سلطانا بدلا عنه، كان النائب في كل مملكة فيها على ما يوصف القلقشندي صاحب رتبة جليلة، يكتب التواقيع الكريمة، ويكتب المربعات بتعيين اقطاعات الجند، وكل ما يتعلق في النيابة من المناشير والتواقيع والمراسيم الشريفة نيابة عن السلطان بمصر. للمزيد عن معرفة عمل نائب الممالك الشامية وخصوصياته انظر العمري، مسالك الابصار، ص ص115-116؛ صبح الاعشى، جـ4، ص ص184، 216، 235، 237، 240، 241وكذلك التكريتي، الأيوبيون، ص322.

5 (?) منها ديوان النظر، وديوان الجيش، وعدد من الموظفين، منها نظر المهمات الشريفة، ونظر الخاص، ونظر الخزانة ونظر البيمارستانات النوري وغيرهم. انظر القلقشندي، صبح الاعشى، جـ4، ص ص190- 194وايضاً سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في عصر دولة المماليك، ص145؛ نفسه،

اهمها ديوان الانشاء،او ديوان كاتب السر، إذ كان يعرف متوليه بصاحب ديوان الانشاء بالشام المحروسة، ويُعين بتوقيع شريف من السلطان، مهمتهُ اطلاع السلطان على كل ما قد يخفيه النائب من امور مملكته وما يحدث فيها عن السلطان، فيختاره من الموثوق به، لذا فهو يضاهي كاتب السر بمصر في الرياسة والرفعة[1].فيما أطلق عليه في باقي الممالك الشامية بصاحب ديوان المكاتبات بحلب، وصاحب ديوان المكاتبات بحماة، والأسم نفسه في طرابلس،علماً بان جميع هؤلاء المتولين كانوا يعينون بتوقيع سلطاني شريف، ولهم كُتّاب من الدست الموقعين،وكُتّاب درج،يشرف على تعيينهم النائب بنفسه،[2]وفي صفد والكرك يتولى كِتابة السر رجل يعرف بأسم كاتب الدرج[3].

كانت صلاحيات كاتب السر بالشام في البداية مقتصرة على المكاتبات الرسمية، إذ لم يكن له الحق وظيفياً في حضور مجلس السلطان في دار العدل وجلوسهِ مع نائب السلطنة، إذ كان ينوب عنه كاتب الدست ليوقع بما يحتاج اليه في المجلس، ثم يخبر بعده كاتب السر بما جرى فيما بينهم واتفق عليه، وهذا يؤدي الى الخلل، ووقوع مالا يُحمد عُقباه بإخفاء امرهم وسوى ذلك،ثم تمكن كاتب السر من اخذ فرمان سلطاني لحضور مجلس النيابة بدار العدل[4]، ولاسيما بعد ان كثرت شكوى كُتّاب السر على ضرورة حضورهم المجلس لمعرفة ما كان يخفى عليهم من قرارات واسباب اصدارها؛

العصر المماليكي في مصر والشام، ص ص202-203.

1) (القلقشندي، صبح الاعشى، جـ4، ص189؛ اليوسفي، نزهة الناظرين، ص ص62-63.

2 (?) القلقشندي، صبح الاعشى، جـ4، ص ص219، 234، 237.

3 (? (المصدر نفسه، جـ4، ص ص240، 241.

4 (?) القلقشندي، صبح الاعشى، جـ4، ص196.

لذا فقد اصبح من اهم التقاليد ان يهتم السلاطين في أختيار كاتب الديوان في النيابات التابعة له من خاصته ليطلعهُ على خفايا امور المملكة التي قد تحدث، وقد يخفيها النائب عنه[1]. ومن اجل هذا، يعدّ كاتب السر في نيابات الشام بوظيفتهِ مماثلة لكاتب سر ديوان الانشاء في مصر من حيث الاهمية والمنزلة لدى سلطان البلاد.

من الجدير بالذكر ان هذا الديوان كان قد ورثهُ المماليك لديوان الأيوبيين في الشام. إلا ان الملاحظ بان المؤرخين المعاصرين الأيوبيين، لم يقدموا لنا الكثير عن هذا الديوان بل اكتفوا بالأشارة اليه فقط، على الرغم من اهميته في تلك الحقبة التي كان ديوان الانشاء من اهم نظم الأيوبيين حاجة في تحرير رسائل الحرب والسياسة، او مراجعتها، ووضعها في صيغتها النهائية، لان العصر الايوبي كان عصر جهاد وتبادل حروب وقوة من اجل مد نفوذ السلطان الأيوبي والقضاء على كل المخاطر التي تحيط بدولتهم من الصليبيين والمغول.

مستلزمات ديوان كاتب السر (مصر، بلاد الشام)

1. عادةً ما يستخدم هذا الديوان الورق والقلم لكِتابة وتحرير الرسائل الديوانية، فكان هناك ثلاثة انواع من الورق المستعمل في مكاتبات مصر هي كل من الورق المصري والورق البغدادي والورق الشامي، وقد كان الورق البغدادي الذي يجلب من بغداد هو الورق السائد في الاستخدام؛ لان يعدّ من اجود انواع الورق المستخدم عند الإدارة المملوكية واكثرهُ رواجاً، إذ فُضّل لجودته في كِتابة المصاحف، وكُتب عهود السلطان، وبيعتهِ، ومكاتبات

[1] (?) نقولا زيادة، دمشق في عصر المماليك، ط1(بيروت: مط فرنكلين للطباعة والنشر، 1966م).

الملوك، وكان الورق الشامي يستعمل في مكاتبات الديوان، وفي عمل الدفتر الذي يستخدمهُ الدوادار لشؤون دائرته، ولايجوز للكاتب استخدام هذا الورق إلا بعد أستحصال موافقة السلطان، مرفقةً بأصدار مرسوم سلطاني يجيز له استعمال هذا الورق، حتى لا يهمل أستعمال الورق المصري،فيما كان الورق الذي يجلب من الشام يستخدم في كِتابة الرسائل التي تحملها طيور الحمام الزاجلة؛لخفتهِ ورقة نوعيته ويعرف بورق البطائق[1]**.**

اما في الشام فكان الورق المستخدم للمكاتبات الرسمية هو الورق الشامي،وقد اختلف مقدار قطع الورق الشامي في ممالك دمشق وحلب وطرابلس وحماة وصفد والكرك، بإختلاف نوع المكاتبات والرسائل الصادرة عن تلك الممالك،فالورق الشامي الكامل كانت تُكتب فيه المكاتبات الصادرة عن السلاطين،وقد يُكتب فيه النواب الى أعلى الطبقات من أرباب التوقيعات والمراسيم،ويُكتب في الورق الشامي العادي من أرباب التوقيعات والمراسيم الصادرة عن النواب او عامة المكاتبات الصادرة عن النواب الى السلطان ومن دونهِ من اهل المملكة، وكتب في الشام بورق الطير العادي كما في مصر[2].

كانت الرسائل التي تُكتب في الديوان، أو تصدر عن الديوان، تختلف بأختلاف مضمون الكِتاب او الرسالة اياً كانت صفتها، من ولاية عهد، او بيعة سلطان، او تقليدٍ، او منشور، وغيره من الكُتب الصادرة عن ديوان كاتب سر المماليك، سواء في مصر، او الشام[3]،

1 (? (القلقشندي، صبح الاعشى، جـ3، ص476.

2) (القلقشندي، صبح الاعشى، جـ6، ص ص190-194 و جـ10، ص ص 193-194.

3)) اما عن مقادير الورق المستعمل بديوان الانشاء في الابواب السلطانية فتكتب عهود الخلفاء ومبايعتهم بقطع الورق البغدادي الكامل وهو بذراع

وقد اختلف عن حالة مقدار الورق المستخدم في بلاد المغرب والسودان وبلاد الفرنج.

2. اما القلم فيعدّ آلة الكاتب وأداتهِ التي بها تتم صنعته، فلا بد من ان تكون الاقلام رزينة متوسطة في الرخاوة والصلابة[1]، وكان يختار من انابيب القصب النابت في الصحراء[2]، وقد خصص الفضلاء من رجال العلم والأدب القلم بأوصاف كثيرة ومزايا خطيرة وشروط واجبة[3]، مما يدلُ على اهميته فهو لسان الكاتب وفكره الناطق[4].

القماش المصري، وطول كل وصل من الدرج ذراع ونصف الذراع المذكور، وكُتب الطبقة الثانية من الملوك بقطع البغدادي الناقص وعرضه عرض درجة دون عرض البغدادي الكامل بأربعة أصابع مطبوقة، وان كُتب مناشير الامراء المقدمين، وتقاليد النواب الكبار والوزراء وأكابر القضاة بقطع الثلثين من الورق المصري، وان قطع النصف، وتعني نصف من الطومار المنصوري الذي كتب فيه مراسيم الطبقة الثانية من النواب ومناشير الامراء الطلبخانات، ومناشير الامراء العشرات، ومراسيم صغار النواب، تُكتب بقطع الثلث المنصوري، وتُكتب بقطع المنصوري، مناشير المماللك السلطانية، ومقدمي الحلقة، ومناشير عشرات التركمان ببعض المماللك الشامية العامة لاهل المملكة وحكامها، وبعض المراسيم والتواقيع الصغار والورق الشامي الرقيق الذي يستعمل= =لخفتهِ بحلقات الكُتب وبطائق الحمائم. للمزيد عن تفاصيل الورق الديواني انظر القلقشندي، صبح الاعشى، جـ6، ص ص190-194، ص ص153-154.

1) (ابن شيث، معالم الكِتابة، ص52.

2 (? (النويري، نهاية الارب، جـ7، ص19-20

3) (وجب على اقلام الكِتابة ان تكون من العدلة الصلبة طولها لا يزيد عن ستة عشر اصبعاً الى ما دون، واشترط فيه قلة العقدة وكثافة اللحم وصلب القشرة حتى لا يلعث الخط وبشظيه، وتكون له سكين حادة كالمبراة لتكون عوناً على بري القلم ويجب ان تكون القّطه مربعة مع ارتفاع من الجانب الايمن حتى لا تشوش الخط وتضعفه. انظر ابن شيث، معالم الكِتابة، ص ص52-54؛ النويري، نهاية الارب، جـ7، ص19-24؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ6، ص434 وما يليها.

4) (للمزيد عن التعرف على ادوات الكِتابة وموادها في العصر العباسي انظر اسامة ناصر النقشبندي: ادوات ومواد الكِتابة في العصر العباسي، مجلة المؤرخ العربي، العدد 26، لسنة 1985م، ص ص 227-229.

اما في مصر فقد اختلفت الاقلام المستخدمة مع طريقة الكِتابة بها في ديوان كاتب السر بما يناسب مقدار قطع ورق المكاتبات والرسائل الصادرة عن السلطان ورجال الدولة بخط كاتب السر، فقد نسب قلم مختصر الطومار [1]لقطع الورق البغدادي الذي يكتب فيه كُتب ولاة العهود، ولقطع الثلثين قلم الثلث الثقيل، ولقطع النصف قلم الثلث الخفيف الخاص بالتقاليد، ولقطع الثلث قلم التوقيعات، ولقطع العادة قلم الرقاع[2].

اما في الممالك الشامية فيكتب بقلم التوقيعات لانه مقدار قطع الثلث البلدي او القريب منه (اي الورق الشامي الكامل في طولهِ)،وقلم الرقاع للورق الشامي العادي؛لانه يشبه الورق المنصوري،ولبطائق الحمائم قلم الجناح[3].وبذلك تعلم ما يناسب مقدار كل قطعة من قطع ورق مكاتبات ديوان كاتب السر المستعملة في الديار المصرية والممالك الشامية[4].

اما عن رسم الكِتابة وطريقتها فتذكر انه اختلفت بإختلاف رتبة المكتوب عنه والكاتب اليه في مكاتبات اعيان الدولة من السلاطين والامراء والوزراء وغيرهم، بالديار المصرية والشامية، بما يناسبها من مقدار بياض الورقة وعدد سطور الكِتاب[5].

---

1 (?) هو نوع من انواع الخط او من انواع الكِتابة. القلقشندي، صبح الاعشى، جـ3، ص52.

2 (?) العمري، التعريف، ص89-90؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ7، ص ص 192-195 وجـ2، ص43 وما يليها.

3 (?) العمري، التعريف، ص ص89-90؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ6، ص ص194-195.

4 (?) لقد قدم الكاتب عبد الحميد صورة واضحة عن اهمية القلم بالنسبة للكاتب وانواعه بصورة عامة. انظر محمد كرد علي، رسائل البلغاء، ط 1(القاهرة: مط لجنة التاليف والنشر، 1946م)، ص ص 36-237.

5 (?)ان قاعدة ديوان الانشاء ان كلما كبر قطع الورق في المكاتبات كان تعظيماً للمكتوب اليه، اي ان كل من عظم مقداره من المكتوب اليه كان قطع الورق في مكُاتبتهِ أكبر. القلقشندي، صبح الاعشى، جـ10، ص155.

3.كان لطبقة كُتّاب ديوان السر ملابس خاصة تميزهم عن غيرهم من رجال الدولة، فكان كبارهم يلبسون نوعاً من العمائم الكبيرة (بقيارة) مخططة (مرقوم)؛ لذا سموا (ارباب الوظائف من المتعممين) او (اهل العمائم)[1] وذلك لتميزهم عن غيرهم من ارباب الوظائف الديوانية الاخرى، والفقهاء والعلماء والادباء، فقد كان كُتّاب القبط يلبسون العمائم البيضاء ويتميز اليهود بلبس عمائم صفراء وكان هذا الامر تقليد ليميزهم عن كُتّاب وادباء المسلمين[2].

اما اثوابهم فيلبس كِبار الكُتّاب ثوباً (قوقاني) من القطيفة الحرير (الكمخا) البيضاء مطرزة بخطوط رقم الحرير ومحلاة بفرو القندس وشعر سنجاب، وآخر تحتاني اخضر اللون. والصغار منهم تكون كمية الفراء اقل، ولا يوجد شعر سنجاب،واللون التحتاني يختلف عن رؤسائهم[3]،وبعد ان اصبح كاتب ديوان السر هو أعلى رتبة في الدولة بعد السلطان،صار يلبس جُبة،او فرجية لها اكمام واسعة،وفي ارتداء الطرحة على المنكب،وكان هذا زي الوزير أيضاً[4]، وجرت العادة عندهم ان يلبسوا الثياب البيض في الصيف من

1 (?) المقريزي، الخطط، جـ3، ص370؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ2، ص277؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص255 وانظر سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في عصر دولة المماليك، ص ص158-159؛ عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص52.

2 (?) المقريزي، الخطط، جـ3، ص370؛ ابن حجر، انباء الغمر، جـ2، ص277؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ7، ص255 وانظر سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في عصر دولة المماليك، ص ص158-159؛ عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص52.

3 (?) العمري، مسالك الابصار، ص110؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ4، ص43؛ المقريزي، الخطط، جـ3، ص370 وانظر سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص214.

4 (?) القلقشندي، صبح الاعشى، جـ4، ص43؛ المقريزي، الخطط، جـ3، ص 365 وانظر سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص214.

القطن او في الشتاء من الصوف [5][اي تكون الفوقانية منه]،وظل الامر على هذا النحو حتى سنة 799هـ/1396م عندما طلب بدر الدين الكلستاني (ت 801 هـ / 1398 م)، كاتب السلطان الظاهر برقوق في لبس الصوف الملون في الشتاء لجميع المعممين،فأذن لهم وصاروا يلبسون الجُبب الملونة في الشتاء[2].

4.لم تكن الأرزاق التي تمنح من قبل السلاطين المماليك لموظفيهم متساوية، بل كانت تختلف بأختلاف مناصبهم،إذ كانوا يتسلمون ارزاقاً شهرية، بعضها كانت مادية واخرى عينية نظير خدماتهم الادارية في داخل مراكز السلطنة المختلفة،فكان الكاتب في ديوان السر يتسلم مبلغاً قدره خمسون ديناراً[3]، ورواتب جارية من الخبز واللحم والتوابل والزيت والسكر والشمع والعليق للدواب وحتى الكسوه[4]، فضلاً عن الخلع التي كانت تمنح له عند توليته [5]، فنرى مقدار غنى الكُتّاب، حتى ان بعضهم اتخذ الغلمان والمماليك، وكانت دواتهم من الذهب او مطلية به، واستخدموا السكاكين المفضضة[6]،ويروي لنا ابن كثير صورة من

---

1 (?) المقريزي، السلوك، جـ4، ص24.

2 (?) ابن حجر، انباء الغمر، جـ1، ص414؛ السيوطي حسن المحاضرة، جـ2، ص ص218، 308 وانظر سعيد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر المماليك، ص214.

3 (?) وتساوي الف درهم مملوكي، لان كل دينار مملوكي يساوي عشرون درهم مملوكي، ويزن الدرهم 5.3غم والدينار الذهبي القديم 5.3 ×20= 70 غم من الذهب. عن الدراهم والدنانير المملوكية وموازينها ومن المصادر التي اعتمدنا عليها انظر المناوي، النقود والمكاييل والموازين،ص ص107-127وانظر محمد احمد دهمان، معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ط1(بيروت: مط دار الفكر، 1990م)، ص74.

4)) العمري، مسالك الابصار، ص 110؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ4، ص 51 وايضا عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص53؛
Encyclopedia of Islam. II. C., Istanbul, 1979 p. 759.

5 (?) سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصري في عصر المماليك، ص 210.

6 (?) السبكي، معيد النعم، ص42وانظر محمد زغلول سلام، الادب في العصر المملوكي، ط1(القاهرة: مط دار المعارف، 1968م)، ص66.

هذا الغنى متمثلاً بالكاتب علاء الدين بن الاثير (ت730هـ / 1329م) ايام السلطان الناصر محمد بن قلاوون (693-694هـ/ 1292- 1294م)[1]، الذي كان يملك ستة عشر مملوكاً من الاتراك المشترين، الواحد منهم كان سعره خمسمائة دينار[2]. إلا ان هذا الامر تغير عهد المماليك البرجية، الذين صاروا يدفعون لسلاطين البلاد ليصلوا الى ديوان كاتب السر، ولاسيما بعد التدهور الذي صاحب هذا العهد، ومثلما سنرى لاحقاً، إلا ان هذا لايعني ان المنصب لم يكن يمنحهم الغنى والجاه.

واخيراً نقول ان هذا التشكيل الاداري المنظم والمنسق لموظفي ديوان كاتب السر، كان له دور كبير في ان يحظى بأهمية كبيرة في الدولة المملوكية ومكننتها الادارية (البحرية - البرجية) ولاسيما بعد الدور الذي لعبهُ كاتب السر في الديوان، فنال ثقة ودعم سلاطين الدولة بالتتابع،مقدماً على من عداه من أصحاب المراتب العليا بالسلطنة، وحتى على متولي نائب السلطنة نفسه، الذي كثيراً ما كان يتطلع لأقتناص السلطنة من السلطان، فكان هو بمثابة الرقيب على عمل النائب وامرائه لحماية عرش السلطان.

ويظهر لنا أيضا ان كُتّاب سر سلاطين المماليك البحرية، كانوا من الصنف الذي اقره العمري والقلقشندي وابن خليل الظاهري في شروط كاتب السر، على عكس كُتّاب سلاطين البرجية التي اختفت فيهم هذه الشروط والمعايير في متولي هذه الوظيفة، بسبب التدهور الثقافي الذي أصاب كُتّاب السر البرجية كما سنرى لاحقاً، فضلاً عن ان اكثر متوليه كانوا أما من القبط المسيحيين او من اليهود، وكذلك يلاحظ ان عدد معاوني كاتب السر كان يأخذ بالزيادة بصورة عشوائية، مثلاً كان كُتّاب الدست في أيام البحرية سبعة فيما وصل عددهم أيام البرجية الى العشرين، وايضاً كُتّاب الدرج زاد من عشرة حتى وصل المائة والثلاثين.وسوف نرى لاحقاً كيف ان كُتّاب

[1])) البداية والنهاية، جـ14، ص149

[2])) كان الصرف في ايام الدولة الناصرية على كل دينار مائة وعشرين درهم ونصف. المناوي، النقود والمكاييل والموازين، ص109.

السر في عصر السلاطين البرجية كانوا احد أسباب تدهور الدولة وسقوطها على يد العثمانيين.

المبحث الثاني
ادارة البريد في العصر المملوكي

وهو من التنظيمات الادارية ذات الصلة بعمل ديوان كاتب السر،لذا حظيت بأهمية كبيرة لدى سلاطين المماليك (البحرية والبرجية)، ولانها عملت على ربط مركز المملكة في مصر مع باقي نياباتها في الشام وباقي الاقاليم.

عرف العرب قبل الاسلام البريد[1] إذ وردت نصوص تاريخية اشارت الى وجوده ولاسيما في شعرهم [2] وكان للعرب فضلا في تطور نظامه خاصة وأنهم كانوا كثيري التنقل والاسفار ساعدهم على اطراد سير البريد الطويل ما بين البلاد الشاسعة بشكل منظم[3] وبعد قيام الدولة العربية الإسلامية، وتوسع الأعمال الإدارية مع ما صاحبه من تطور الأوضاع وازدياد الحاجة الى نقل وتوصيل الأخبار من مركز الدولة الى مختلف اقاليمها. فظهرت حاجة ملحة للبريد ودعت الى أنشا ء نظام خاص به تحت إدارة خاصة منظمه عرف بأسم ديوان البريد. فكان اول من نظمه الخليفة معاوية بن ابي

---

1 (1) اختلف المؤرخون في اصل الكلمة فقيل انها فارسية تعني بريده م مقطوعة الذنب لان الفرس كانوا يقطعون ذنب الدواب الحاملة للبريد ليميزها عن غيرها، وقيل انها عربية مشتقة من بردت الحديد اذا أرسلت ما يخرج منه. والبريد هم الرسل الذين يحملون الرسائل الملكية وكُتبه الديوانية على الدوابٍ وجمعها برد بريداً ارسله . وفي اللغة البريد مسافة مقدرة اثنا عشر ميلاً او اربعة فراسخ والفرسخ ثلاثة اميال والميل ثلاثة الاف ذراع. للمزيد عن معنى البريد الاداري واللغوي انظر ابن منظور، لسان العرب، جـ4، ص100؛ السبكي، معيد النعم، ص32؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ4، ص367.

2 (2) شلبي، تاريخ الحضارة الاسلامية، ص 140.

3 (3) للمزيد عن البريد قبل الاسلام أنظر خولة عيسى محمد صالح، نشأة البريد وتطوره في الدولة العربي الاسلامية حتى عام 334هـ، (بغداد: كلية الاداب، 1985)، ص ص29-34 . رسالة ماجستير.

سفيان (41-60هـ/661-680م)[4]،الذي اخذه عن الروم في اثناء حكمه للشام، ثم عمد عبد الملك بن مروان خامس الخلفاء الأمويين (65-86هـ/685-705م) الى احكام امره عن طريق ادخال عدة تحسينات عليه حتى أصبح اداة هامة في ادارة شؤون الدولة [2]، وقد اهتم العباسيون فيما بعد بنظام البريد، حتى انه في عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور (136-158هـ/754-775م) بلغ من التنظيم ان عمال البريد كانوا يوافونه ببريد دار الخلافة مرتين في كل يوم،من بعد صلاة الصبح،ومن بعد صلاة المغرب[3]،إذ كان صاحب البريد في اول الامر مهمته تنحصر في توصيل الاخبار من الولايات والاقاليم الى الخليفة،ثم توسعوا حتى اصبحت مهمته الرئيسة نقل الخبر والمعونة وتوصيل الاخبار الى الخليفة بأدق تفاصيلها فهو عين الخليفة خارج دار الخلافة[4].

لقد اهتم العباسيون بهذا النظام واعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً في إدارة شؤون دولتهم.وكان الخلفاء يولون مهمة ادارة البريد فقط الى ثقاتهم من أهل العقل والدراية، لان ما ينقلوه كان يتوقف على علاقة الخلفاء بعمالهم وولاتهم، وكان العباسيون يكتبون لصاحب البريد عند توليتهِ مرسوم عهد يرسمون فيه الطريقة التي يجب ان يسير عليها، فيذكر لنا قدامه بن جعفر الشروط التي يجب ان تتوافر

---

1 (4)امر معاوية بأحضار رجال من دهاقين الفرس واهل اعمال الروم وعرفهم بما يريده في معرفة اخبار البلاد من جميع اطرافها وبالسرعة الممكنة فوضعوا له البريد. انظر في هذا القلقشندي، صبح الاعشى، جـ 14، ص368؛ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص134.

2 (1) الطبري، تاريخ الامم والملوك، جـ5، ص134؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ14، ص368.

3 (2) الطبري، تاريخ الامم والملوك، جـ6، ص313.

4 (3) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي، جـ3، ص342.

في من يتولى البريد وما يجب عليه معرفته[5].وكان الخلفاء يضعون في كل ولاية من ولاياتهم عامل بريد مهمته موافاة الخليفة بجميع الشؤون الهامة، بل وحتى الاشراف على اعمال الوالي[2].

وفي مصر قام احمد بن طولون، مؤسس الدولة، بتعيين احد الاشخاص المقربين اليه عاملاً للبريد في حاضرة الدولة العباسية ليوافيه بما يجري في بغداد،وقد استطاع ابن طولون بفضل هذا العامل ان يكشف نيات منافسيه في مصر ممن كانوا يوشون به عند الخليفة العباسي[3].اما عن الاخشيديين والفاطميين فلا يُعرف الكثير عن بريدهم سوى ما ذكره بعض المؤرخين عن الفاطميين واهتمامهم بالبريد وخاصة البريد الذي يحمله الحمام الزاجل المستخدم في البريد الجوي حتى انهم افردوا له ديواناً خاصاً به[4].

---

1 (4) من الشروط ان يكون ثقة اما في نفسه او عند الخليفة القائم بالامر في وقته، لان هذا الديوان كان العمل فيه لايحتاج الى الكافي المتصفح وانما الى الثقة المتحفظ، ويجب ان يعرف حال عمال الخراج والضياع فيما يجري عليهم امرهم، وان يعرف حال عمارة البلاد، وما هي عليه من الكمال والاحتلال. للمزيد عن هذا الشروط انظر الخراج وصنعة الكِتابة، ص ص 184-185.

2 (5) حسن ابراهيم حسن، النظم الاسلامية، ص257؛ جرجي زيدان، تاريخ التمدن الاسلامي، ص239؛ آدم متز، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري، تر.أبي ريدة، ط1(القاهرة:د. مط، بلا.ت)،جـ1، ص ص128-129.

3 (1) المقريزي، الخطط، جـ2،ص ص187-189 وانظر حسن ابراهيم حسن، النظم الاسلامية، ص ص 212-213

4 (2) قيل ان الخليفة الفاطمي العزيز (365-386هـ/975-996م) اخبر وزيره يعقوب بن كلس انه ما رأى يوماً نماذج من القراصية البعلبكية، وانه يحب ان يراها، وكان بدمشق حمام من مصر وبمصر حمام من دمشق، وفي الوقت نفسه كتب الوزير الى دمشق ليجمع فيها من حمام مصري ويعلق في كل طائر حبات من القراصية البعلبكية ويرسلها الى مصر، ففعل ولم يمضِ النهار حتى حضرت تلك الحمائم بما علق عليها من القراصية، فجمعها وطلع به الى الخليفة وكذلك الوزير اليازوري المغربي وزير المستنصر بالله (427-487هـ/1035-1094م) وجه الحمام من تونس من افريقية من بلاد المغرب فجاء الى مصر. انظر القلقشندي، صبح الاعشى،جـ14، ص390 وأيضاً كذلك حسن ابراهيم حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، ص295؛ نفسه، النظم الاسلامية، ص213 عبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، ص ص109-111؛ محمد جمال الدين

اما عن الأيوبيين وخلفائهم من المماليك فقد اظهروا الاهتمام الزائد بالبريد، وتنبهوا الى اهميته في متابعة حروبهم مع الفرنج والمغول وتحديد مخاطرهم على سياسة الدولة وادارتها، من خلال حملهِ للمكاتبات الى جهات الدولة البعيدة بأسرع وقت ممكن. وقد كان نظام البريد في الدولة المملوكية في مصر امتداداً لِما كان عليه ايام الأيوبيين، إلا انه لم يبلغ ذروتهِ في الترتيب والتنظيم إلا في ايام السلطان المملوكي الظاهر بيبرس سنة 669هـ/1270م إذ وضع له نظاماً جديداً في استحداث شبكة من خطوط البريد البري والجوي (من خلال استخدام الحمام الزاجل)،وكانت قلعة الجبل مركزاً لخطوط البريد حتى تفرعت منها أربعة خطوط بريدية:احدها يمتد الى قوص[1] في الجنوب والاخر الى عيذاب[2] في الجنوب الشرقي على البحر الاحمر والثالث الى الاسكندرية والرابع الى دمياط ومنها الى غزة[3].

اما عن التشكيل الاداري للبريد أيام المماليك، فيبدأ برئيس يقال له مقدم البريد،مهمته الاشراف على شؤون البريد ويشرف

سرور، الدولة الفاطمية في مصر، ص38.

1 (3) مدينة تقع على الشاطئ الشرقي لنهر النيل كبيرة وعظيمة هي قصبة صعيد مصر، وكانت بحكم موقعها على رأس الدرب الموصل إلى ساحل البحر الاحمر من مراكز التجارة، وملتقى الحجاج في طريقهم إلى الحجاز في العصر الاسلامي، اشهر ما بقي من اثار ذلك العصر المسجد العمري. البغدادي، مراصد الاطلاع، جـ3، ص1133 و كذلك الشامي، مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي، ص51.

2)) تقع على بحر القلزم (البحر الاحمر) في صحراء لاعمارة فيها، كانت من اشهر المراسي في البحار تلتقي بها سفن التجارة القادمة من اليمن والحبشة والهند، وهي ايضا طريق الحج المصري يسير أليها الحجاج عن طريق قوص ثم يركبون البحر إلى جدة. البغدادي، مراصد الاطلاع، جـ1، ص 974 وكذلك الشامي، مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي، ص51.

3)) القلقشندي، صبح الاعشى، جـ14، ص373؛ ابن اياس، بدائع، جـ1، ص1 08 وانظر عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص61؛ جمال الدين سرور، دولة الظاهر بيبرس، ص128؛ عبد الرحمن زكي، تاريخ البريد في مصر، ط1(القاهرة:مط الاميرية، 1934م)، ص44.

عليه كاتب السر،ويليه سبعة من الموظفين يسمون المقدمين، يتولى كل واحد منهم اعمال البريد يوماً في كل اسبوع،ويقوم بعرض عملهِ اليومي على المقدم[1].ويليهم موظف يقوم بحمل البريد الى أصحابه يسمى البريدي، وكان يتميز بحملهِ لوحة من الفضة مدوره، منقوش عليها في احد الوجهين عبارة دينية لا الّه إلا الله محمدٌ رسولُ الله،أرسله **بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** [2]، ضُرب بالقاهرة المحروسة،وعلى الوجه الثاني اسم السلطان واسم المملكة المتوجه اليها بعبارة **(عز لمولانا السلطان الملك، سلطان الإسلام والمسلمين)**[3].

وهذه اللوحة تعلق في شرابة من الحرير الاصفر في عنقه ويجب ان يظهر اللوح من الامام والشرابة من الخلف [4] ليتميز عن غيره من موظفي الدولة . وكانت هذه الالواح يحتفظ بها كاتب السر في ديوانهِ،وقد يكتب اسمه في آخر الكِتاب الذي ينفذ معه بين السطور ويختم ويسلم له مع ورقة لإبانة وجهته[5]، فضلا عن ان الكُتب والرسائل الديوانية كانت تختلف بأختلاف حامل البريد،فمنهم من كان يحمل البريد العادي من الكُتب والرسائل الخاصة بالولاة والنواب،وهناك من يحمل رسائل السلطان للملوك[6]،فلا بد ان يكون

---

1 (?) الخالدي، المقصد، ص129؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ1، ص116، وجـ14، ص371 وانظر عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص 62؛ علي ابراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص ص325-326.

2)) من سورة الصف، الآية (9).

3)) القلقشندي، صبح الاعشى، جـ1، ص116؛ ألخالدي، المقصد، ص129 وكذلك عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص62؛ علي ابراهيم حسن، تاريخ المماليك، ص326.

4)) القلقشندي، صبح الاعشى، جـ14، ص317 وكذلك عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص62؛ جمال الدين سرور، دولة الظاهر بيبرس، ص ص128-129.

5 (?) القلقشندي، صبح الاعشى، جـ1، ص ص115-116 أيضاً علي ابراهيم حسن، تاريخ المماليك، ص325.

6)) القلقشندي، صبح الاعشى، جـ14، ص371 وأيضاً علي إبراهيم حسن، تاريخ المماليك، ص325.

من ذوي الثقة والامانة،وكانوا يختارونهم من خدم السلطان.وقد اورد لنا تاج الدين السبكي الصفات والشروط الواجبة في صاحب البريدي بقوله:**(يجب ان يكون من اصحاب كتمان السر،وستر العورات،وكف لسانه عن الفضول وبريء من الطمع)**[1].

اما القلقشندي فيقول في صفتهِ:**(قديراً على تنميق الكلام وتحسين العبارة وسماع شبهة المرسل اليه ورد جوابه واقامة الحجة عليه،صحيح الفكر والمزاج ذا بيان وعارضة ولين واستحكام منعة،وان يكون بصيراً بمخارج الكلام وأجوبتهِ، مؤدياً للآلفاظ عن الملك بمعانيها،صدوقاً،بريئاً من الطمع)**[2].وكان هذا الاهتمام الكبير في اختيار موظف البريد، مرده ان ما يحمله هو من اسرار السلطنة، ولاسيما ان بعض من هذه الرسائل كانت ترسل مشافهة على لسان البريدي الى الملوك والامراء، ولهذا السبب ايضاً عمد الظاهر بيبرس الى ان تكون ادارة البريد تابعة لديوان كاتب السر ويخضع لأشرافه بصورة مباشرة بأعتباره كاتم اسرار الملك، ويعود هذا ايضاً الى ان أدارة البريد فيما سبق كانت تابعة الى اشراف الدوادار، وكان دائماً ما يهدد عرش السلطان بما يعرض عليه من اسرار من خلال عملهِ هذا، الامر الذي لم يستسيغهُ السلطان الظاهر بيبرس، فعمد الى انتزاع ادارة البريد من الدوادار إلى احد موظفي الأقلام من خدام السلطان ومقربهِ [3].

كان نقل البريد من جهة إلى أخرى في عصر سلاطين المماليك يتم بطريقتين الاولى نقل بريد بري وهو المعروف على مر العصور

1 (?) معيد النعم، ص33.
2 (?) صبح الاعشى، جـ1، ص116.
3 (?) حسن إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص318.

التاريخية[1]، ولقد انشأ للبريد البري المتمثل بالخيل[2] محطات امتدت على طول الطريق بين مصر والشام حتى وصلت الى جبال طوروس، وكانت هذه المحطات تجهز بما يحتاج اليها المسافر اي [البريدي] من خيل تعرف بأسم خيل البريد ويشرف عليها او يقومون بالعناية بها عدد من الموظفين يعرفون بأسم السواق لأنهم يسوقون خيل البريد، وعدد من السواس مهمتهم العناية بالخيل من تنظيفها وإطعامها لتكون صالحة لقطع المسافات المقررة لها[3]، فضلاً عن الطعام والماء وعلف الدواب، وكانت تبنى بجوار هذه المحطات قرى لعمال البريد يستانس بها، فتقيهم حر الصيف وبرد الشتاء[4]، وبهذه الخدمات التي جهزت بها مراكز البريد، ولاسيما ان بين كل مركز او محطة وأخرى، مسافة قصيرة حتى ان الخبر كان يصل الى قلعة

---

1)) للتعرف على مراكز البريد البري منذ ايام الامويين انظر حسن ابراهيم حسن وعلي ابراهيم حسن، النظم الاسلامية، ص ص114-116؛ حسن ابراهيم حسن، تاريخ الاسلام السياسي، جـ3، ص ص275-276وجـ4، ص 344-345؛ ابو زيد شلبي، تاريخ الحضارة الاسلامية، ص ص142-145.

2)) عمل السلطان الناصر محمد باتخاذ ديوان خاص بالخيل عرف بأسم ديوان الاسطبل وعمل له ناظراً وشهود وكُتّاب لضبط اسماء الخيل وانواعها واوقات ورودها واسماء اربابها ومبلغ ثمنها ومعرفة سواسها وكل ما يتعلق بها. للمزيد عن هذا الديوان ونشأته انظر المقريزي، السلوك، جـ1، ص452 و جـ2، ص527؛ القلقشندي، صبح الاعشى، جـ5، ص461 وانظر علي ابراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ص225؛ امال العمري: دراسة لبعض وثائق تتلعق ببيع وشراء خيول من العصر المملوكي، مجلة معهد المخطوطات، م10، جـ1، سنة 1964، ص ص 223-235.

3 (?) السبكي، معيد النعم، ص47؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ1، ص ص 115-116 وجـ14، ص371 وانظر ايضاً زكي محمد حسن وآخرون، في مصر الإسلامية، ص47؛ عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص 63؛ علي إبراهيم حسن، تاريخ المماليك، ص324؛ جمال الدين سرور، دولة الظاهر بيبرس، ص ص118-119.

4 (?) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ14، ص372وكذلك علي إبراهيم حسن، تاريخ المماليك، ص324؛ جمال الدين سرور، دولة الظاهر بيبرس، ص ص 118-119.

الجبل في القاهرة الى دمشق بأربعة ايام اي مرتين في الأسبوع [1]وهو دليل على قرب المسافة بين مراكز البريد المختلفة.

وعلى الرغم من هذا التنظيم الذي حظي به البريد البري والفائدة في سرعة وصول البريد الملكي، إلا انها لم تكن كافية لتغطية بريد السلطان لذلك استخدموا نوعاً ثانياً من نقل البريد هو البريد الجوي المتمثل بالحمام الزاجل[2] الذي أسُس له محطات على شكل أبراج منتظمة يديره موظفون يعرفون بأسم براجين مهمتهم العناية بالحمام ويدربونه على الطيران، وطيران المسافات البعيدة، حيث يأخذونه بعيداً عن برجه،ثم يتركونه ليعود اليهم،ثم يزيدون المسافة شيئاً فشيئاً،فاذا نزل الطائر الى برج من الابراج نقل ما يحمله على جناحيه الى طائر آخر يوصله إلى المحطة او البرج الذي يليه[3].

كانت الرسائل التي يحملها الحمام مكتوبة على ورق خفيف يسمى بطائق الورق، أو ورق الطير، توضع تحت جناحه لحفظها من المطر، ويكون مضمونها مختصراً من غير حشو، وتؤرخ الرسالة

---

1 (?) للتعرف على خطوط البريد البري بصورة مفصلة انظر القلقشندي، صبح الأعشى، جـ14، ص373-380 وأيضا زكي محمد وآخرون، في مصر الإسلامية، ص ص47-53؛ أبو زيد= =شلبي، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص 145؛ عبد الرحمن زكي، تاريخ البريد في مصر، ص ص36-38.

2 (?) لقد اهتم الفاطميون بهذا النوع من البريد حيث افردوا له ديوان خاص يكتب فيه انساب الحمام وافرد لكل نوع منهم علامة تميزه عن غيره انظر العمري، التعريف، ص196؛ القلقشندي، صبح الأعشى، جـ1، ص ص118-119؛ السيوطي، حسن المحاضرة، جـ2، ص ص313-314 وكذلك حسن إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، ص213؛ نفسه، تاريخ الدولة الفاطمية، ص295.

3 (?) القلقشندي، صبح الأعشى، جـ1، ص ص118-119؛ المقريزي، الخطط، جـ2، ص211، السيوطي، حسن المحاضرة، جـ2،ص ص 313-314 وكذلك سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في عصر دولة المماليك، ص149؛ علي إبراهيم حسن، تاريخ المماليك، ص316؛ عبد الرحمن زكي، تاريخ البريد في مصر، ص44.

باليوم والساعة، وللمحافظة على سرية مضمون الرسالة، تُكتب في صورتين تُرسلان مع حمامتين تطلق أحداهما بعد ساعتين من إطلاق الأخرى، فإذا ضلت أحداهما أو قُتلت او افترستها الجوارح وصلت الأخرى بدلاً عنها [1]، على الرغم من انه جرت العادة ان لا تطلق الحمائم في الجو الممطر ولا قبل تغذيتها [2]، وكانت تصبغ بلون أزرق كلون السماء حتى لا يُرى، او بالسواد حتى لا يراها العدو اذا أطلقت بالليل، وكانت تُعلم بعلامة في أرجلها، أو على مناقيرها، او تعطر بالروائح، فأذا مرت بمركز ما كُتب بمرورها[3].

وكانت قلعة الجبل، هي مركز أبراج الحمام الزاجل والمسافة ما بين كل برج وأخر يقدر بثلاثة أضعاف المسافة ما بين محطات البريد البري[4]، وبهذا يكون البريد الجوي أشبه بالبريد البري،إلا انه أكثر أماناً وسرعة . وكان يقع تحت إشراف كاتب السر أيضاً الذي كان يقوم بقراءة الرسائل التي يحملها البراج من قلعة الجبل إلى السلطان في قصره ثم يقرأها كاتب السر بعد ان يخرج كل من كان موجوداً، حتى البراج نفسه[5] .

1 (3) المقريزي، الخطط، جـ2، ص ص231-232 وانظر علي ابراهيم حسن، تاريخ المماليك، ص328؛ عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص64؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في عصر دولة المماليك، ص149؛ جمال الدين سرور، دولة الظاهر بيبرس، ص119.

2 (4) عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص ص64-65؛ سعيد عبد الفتاح عاشور، مصر في عصر دولة المماليك، ص149؛ علي إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى، ص392.

3 (1) عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص ص64-66.

4 (2) للتعرف اكثر على محطات الحمام الزاجل ومسافة كل محطة واخرى انظر العمري، التعريف، ص ص196-197 وكذلك عبد الرحمن زكي، تاريخ البريد في مصر، ص ص41-42.

5 (3) المقريزي، الخطط، جـ3، ص343 وانظر عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك،ص66.